

شريعة الصوم.. والبناء



كان من عطاء الله في صيام هذا الشهر المبارك أن نسيه - جل شأنه - إلى نفسه وأنته هو الذي يجزي به، مع أن العبادات كلها سبحانه وهو الذي يجزي بها، فلا عبادة إلا له، ولا توجه إلا إليه، وهو جل وعلا بيده العطاء والمنع (كُلا نُمِدُّهُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) (الإسراء / 20). ولكن حكمة عظيمة تكمن وراء هذه الخصوصية لصيام شهر رمضان. ما أحوج الأمة إليها، وهي تحاول أن تقهر الصعاب، وتحشد ما أعطاه الله من إمكانيات على كل صعيد، كي تواجه مرحلة التخطي إلى ما هو الأفضل والأكرم إن شاء الله. فالمسلم الذي سلم له صومه كما بيّن النبي (ص) بشّره ربنا تبارك وتعالى ببشارة عظيمة. وذلك جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري من رواية أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال: "قال الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنّه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة. فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب. فإن سابّه أحد، أو قاتله، فليقل إنني صائم. والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه". الواقع أنني أذكر الحديث، وأعلم أن الكثرة الكاثرة من المسلمين يقرؤونه ويسمعون عن دلالة الكثير المبارك في هذه الأيام، ولكن حسبي الإلماحة السريعة إلى الخصوصية التي نجدها في تلك الكلمات النورانية "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنّه لي وأنا أجزي به" فيم كان ذلك؟ وكل الأعمال التي يقوم بها المسلم - في مجال العبادة - كما ذكرنا في صدر

هذا الكلام -: هي عَزَّ وِجَلَّ وهو سبحانه الذي يجزي بها. الواقع أن الصوم لا يقع فيه الرياء؛ فكل عمل من أعمال البر باعتبار أن له صورة إيجابية ظاهرة يمكن أن يدخله الرياء، والرغبة في الظهور أمام المخلوقين بمظهر التبتُّل والنسك، أما الصوم؛ فإنَّه إمساك وليس عملاً يظهر، فهو أقرب إلى عمل القلب منه إلى عمل الجوارح، إنَّه بالنية التي تخفى على الناس ولا يعلمها إلا الله عزَّ وِجَلَّ. والصوم - كذلك - أمانة؛ فهو أمر بين العبد وخالقه الذي يعلم السر وأخفى، وفي مقدور كل امرء أن يكون غير ممسك عن المفطرات ثم يدعي غير ذلك. والذي يعلم سرَّه ومكنون نفسه وما توسوس به؛ هو الله الذي قال في كتابه: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ الْوَرِيدِ) (ق/ 16). من أجل أن الصيام أمانة وأنَّه بعيد عن الرياء.. إلى وجوه أخرى ذكرها بعض العلماء. قال الله تعالى: "إلا الصوم فإنَّه لي وأنا أجزي به"، فما دام لا يطَّلَع على الصوم إلا هو سبحانه؛ فلتكن الإضافة إلى نفسه سبحانه. وقد جاء في بعض روايات الحديث "يدع شهوته من أجلي". أما إننا لو فتحنا البصائر على نور هذه الحقيقة وحاولنا أن نفيذ منها لواقعنا، لألفينا ثروة لا تنفذ من الخير إذ الأمانة والبعد عن الرياء زاد لابد أن يصحب كل عامل على طريق هذه الأمانة، مهما كان شأنه وتخصصه! وكم تعاني الأمانة اليوم من فقدان الأمانة، ومن الرياء وحب الظهور. أمَّا ونحن نبصر هذه الخصوصية في رمضان من منظور جماعي؛ نجد لزاماً أن تكون الأمانة والإخلاص في نسيج الحياة في جيل نعدُّه لحمل أمانة البناء وتنمية الوجود الذاتي للأمة والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. - شرعة الصوم.. والبناء: في ظل المعلم القرآني من آيات الصيام، رأينا بعضاً من توجيهات النبي (ص) التي تجعل من الصيام عبادة مقبولة، ينعكس أثرها على الفرد والمجتمع، حين دعا عليه الصلاة والسلام - وهو المبيِّن عن ربه ما أراد - إلى إمساك الجوارح عن كل ما ينافي أدب الإسلام وأخلاق البررة المتقين. ويزيد الهدي النبوي هذه القضية بياناً، فيقول (ص) متوعداً أولئك الذين تنفصل العبادة عندهم عن السلوك، فيكون صيام النهار وقيام الليل عملاً مبتوراً عن خشية القلب، ومراقبة الله عزَّ وِجَلَّ، حتى تجد إمساكاً عن المفطرات هو بالتقليد الآلي أشبه، وحركات ليس فيها ندى الطاعة ولا حرقة القلوب الخاشعة... فيقول صلوات الله وسلامه عليه فيما روى أحمد وغيره: "ربَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع وربَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر". إنَّ هذا الإنسان غريب على بنية المجتمع المسلم كما أراد الله له أن يكون، وكما عانى بناءه المبلِّغ الصادق عليه الصلاة والسلام، فهو يجوع ويظمأ وتحاصره شهواته نهاراً، وقد ينصَّب في القيام ليلاً، ولكن ليس له - ويا للحرمان - إلا جوع النهار وسهر الليل، إنَّه في واد، وقبول عمله في واد آخر. ولا عذر لمعتذر بعد البيان الأمين ممن قال الله في شأنه: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَايَهُ مَا عَدْتُمْ حَرِيصٌ عَلَايَكُمْ
 بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (التوبة / 128). تُرى أيُّ صيام هذا الذي يدعيه
 الظالمون الطغاة، والمظاهرون لأعداء الله على المسلمين، وآكلوا الحرام والمؤذون لعباد
 الله؟! إنَّه - والله أعلم - صيام الذين قال الله فيهم: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّاهُ غَافِلًا
 عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِئَیَّوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
 الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ
 وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) (إبراهيم / 42-43). وهكذا تأخذ العبادات - ومنها فريضة الصوم
 - مكانها في عملية البناء الفريدة في تاريخ بني الإنسان؛ فليست هذه العبادة رسوماً
 وأشكالاً مقطوعة النسب عن الاستقامة في التعامل والسلوك، وليست أمتنا أمة طقوس وزخارف
 ورسوم، تهمل القلب وتُعنى - فحسب - بما تبصره العينان من الفن والشكليات، ولكنها أمة
 تحمل رسالة العبودية الصادقة لله عزَّ وجلَّ في إطار من البناء: عماده الإنسان، محوره إعداد
 هذا الإنسان بدءاً من داخل النفس، وتنمية مشاعر الإنسانية ودواعي الفطرة فيه. والواجب
 في شرعة الإسلام أن ينعكس ذلك على تصرفاته وطريقته في السلوك؛ ليتم التواؤم بين العلم
 والعمل وبين العبادة والسلوك. فالتزام الشرعة في الوقت، والحركة، وطريقة العبادة؛
 عبادة. وانتظام هذه الأمور ضمن دائرة من التكامل الذي يقوم على يقظة القلب ومراقبة
 الله عزَّ وجلَّ: عبادة أيضاً، فالمسلم - على سبيل المثال - يلتزم بالعدد المطلوب من الأيام
 في رمضان حسب رؤية الهلال، مع المجال الزمني للإمساك، لأنَّ العمدية في تجاوز الفجر عند
 الإمساك أو الفطر قبل الغروب بأي زمن متصور: قاضية على صوم ذلك النهار، وهو درس في
 الأمانة والنظام ما بعده درس، ولكن ذلك كلاًه ليس منقطعاً - كما أسلفنا - عما توجبه سلامة
 البنية في المجتمع، وضمان استقراره في ظل أحكام الإسلام. والسعيد السعيد من انبعثت
 أعماله عن قلب يقظ، يفيض على الجوارح - وهو موئل التقوى - استقامة سلوك وإخلاص دين،
 وإذا صلحت حال الفرد وفق هذا المنهج المتكامل: صلحت - بعون الله - حال المجتمع، والبررة
 الأطهار الذين كتبوا تاريخ بدر، والفتح في رمضان، هم أولئك الذين أحسنت يد محمد (ص)
 الصناعات بناءهم، فكان ما كان على يدهم من النصر والتمكين. ولكم نكون على قدم الصدق
 والكرامة، حين نتخذ من شهر رمضان جسراً يصلنا بأولئك البناة الأمناء الذين عبدوا الله
 صائمين مجاهدين، صادقين ما عاهدوا الله عليه، وكانوا بذلك الترجمان العملي للإسلام الذي
 آمنوا به، وآمنوا بمن حمله إلى الدنيا وحياً من عند رب العالمين. المصدر: كتاب (الإنسان
 والحياة.. في وقفات مع آيات)